" الـــــــــــدور التـــــــــــــــــالي "

ا

أنديل*

/// مقدمة موسيقية ///

فكرت طويلا قبل أن أحسم قراري بشأن الجملة التي سأفتتح بها هذه القصة. أريد أن أكون أمينا معكم قدر الإمكان، ولكن الأمانة دفعت بي إلى منطقة مربكة للغاية. لا أدري إن كانت المشكلة في الأمانة، أو فيّ، أو في من يقرأون هذه السطور الآن وفيما يتوقعونه من قصتي، أو ربما المشكلة هي في القصة ذاتها وما تعنيه ومبرر وجودها. ربما مع نهاية القصة نجد إجابة لبعض هذه الأسئلة، وربما لا.

«أنا في الخامسة من عمري».

هكذا أردت أن أبدأ، بما أنني مررت بالتجربة محور القصة وأنا في هذا العمر. إلا أن استخدام جملة كهذه في بداية قصة يوحي -كذبا- بأن المتحدث فعلا في الخامسة من العمر، وكم هو مسلٍ هذا الشعور، غالبا لاستحالته، أن تسمح لك القراءة بالتواجد، ولو وهما، داخِل عقل طفل، فترى الحياة من منظوره. إلا أن هذه للأسف تجربة نادرة الحدوث، لأن القليل جدا من الأطفال (ربما يقترب العدد من صفر) هم كتاب محترفون، القليل جدا من الأطفال يجيدون القراءة والكتابة أصلا، وهؤلاء الذين يجيدونها غالبا مهمومون بأمور - من وجهة نظرنا، نحن الكبار- أتفه من أن نضيع وقتنا في قراءتها، خاصة على هيئة قصة قصيرة كثيرة الكلمات ومطبوعة على صفحات متوسطة القطع. هذا الوسيط يتناسب مع كتابات الكبار لأنه أكثر اقتصادية وتناسبا مع غزارة إنتاج الكبار من الكلام، كما أن ثباته وقياسيته يمنحان كلام الكبار احتراما مطلوبا.

لـذا فمـا يحدث عادة، هو أن يُسـتأجر كاتب ناضج محل ثقة، لديه من الخيال والإقنـاع مـا يكفي لبناء عالم طفـل، يتحدث إلى القراء من خلاله ويربطه أيضا، إن أمكـن، بعالم الكبار، ويا حبذا لو ينسج ما بـين هذا العالم وعالمنا (عفوا، افترضت أنني والقارئ كبار، إلا أنني أظن أن هذا أمر مفروغ منه الآن)، ينسج المقارنات والتشـبيهات ويجعلنا ننظر لعالمنا كأنه عالم أطفال يسـكنه الكبار، أو ننظر لعالم الصغـار كعالم صغار يسـكنه الكبار، إلى آخر هـذه الألاعيب المبتذلة الجميلة، فالحياة لابـد وأن تحمـل مضامين غير تلك التي نراها كل يوم، وفلسـفات وأعماق ومعاني. نعرف هذا لأننا لسـنا أطفالا. ولأننا لسـنا أطفالا فلا نريد أن نقرأ ما كتبه الأطفال، يجب أن يكتـب الأطفال للأطفال والكبار للكبار، هكذا تسـتقيم الأمور. لحظة! لا يجب أن يكتب الأطفال حتى للأطفال، فقد يكتبون أشـياء غير لائقة (جنسـية أو متعلقة بالأديان) فيربكون أقرانهم، يتسـببون في بكائهم وينهار كل شـيء. لا يمكن أن يكتـب الأطفال للأطفال إلا بعد مراجعة دقيقة وإرشـاد من الآباء، ولا مانع بالطبـع مـن قليل من الرقابة النافعة. سـيلاحظ الكبير إصرارا دؤوبا من طرف الطفل على كتابة غير اللائق والقبيح كلما واتت الفرصة، إصرارا يمكن تشـذيبه بسـهولة بالربـط الدائم الصبور، في عقل الطفل، ما بين هذه الأفعال ومشـاعر مؤلمة مثل الخزي والألم والضآلة.

مفردات
Mophradat

على صعيد آخر، يجب أن يكتب الكبار للأطفال لأن الكبار أذكى من الأطفال ويمكنهم نقل خبراتهم في الحياة لهم، على هيئة قصص ظريفة عن الحيوانات التي تطيع أمهاتها أو تجيد العد. ولكن لا يجب أن يكتب الأطفال للكبار، لأنهم لا يعرفون الكثير عن الحياة. الكثير من الأطفال لايعرفون أصلا أنهم أطفال، إلى أن يشرح لهم آباءهم ذلك ويشرحون لهم تبعاته: أنت طفل فلا تمكنك مشاهدة التلفزيون، أنت طفل فلا تمكنك قيادة السيارة، أنت طفل فلا يمكنك الدخول في علاقة جنسية ثلاثية... وهكذا. وأعتقد أن هذا يكفي لإثبات أنهم غير أذكياء بالقدر الكافي للتواصل مع من يكبرونهم في العمر.

/// فاصل موسيقي - ٣٠ ثانية ///

أنا إذن في الخامسة من العمر، طفل، صغير الحجم، مكلبظ الخدود بعينين واسعتين بريئتين، أقف في طابور طويل في ممر داخل مبنى بحوائط رمادية سميكة، أنا في «مدرسة السلام الابتدائية المشتركة». أعرف ذلك لأن أبي وأمي حدثاني لساعات وساعات طوال الأسبوع الماضي عن كوني سأذهب للمدرسة قريبا، ونسجا في خيالي قصصا عن هذا المكان الجميل الذي سأقاتل فيه أصدقاء جدد.

(كتبت «سأقابل» ولكن خاصية التوقع اللغوي التلقائي في جهاز الآيباد غيرت الكلمة لـ«أقاتل»، وأنا الآن مرتبك للغاية لأني كنت على وشك أن أفاجئ من يقرأ بأنني لم أكن أعلم أنني كنت سأقضي معظم وقتي في المدرسة «أقاتل» بدلا من أن «أقابل»، مستغلا ذكائي البشري في الربط بين كلمتين متناغمتين يجمعهما سياق غير متوقع، إلا أن الذكاء الاصطناعي سبقني بخطوة. أعلم أن هذه صدفة كثيرة الحدوث ولا تستحق كل هذه الجلبة ولكن السبب الأكبر في الارتباك الذي أشعر به هو -مجددا- موضوع القصة والسر المحوري الذي تحاول استكشافه، والذي كنت أتوقع أن يرتبط آجلا أم عاجلا بالذكاء الاصطناعي، إلا أن قرار الذكاء الاصطناعي بإقحام نفسه في الأحداث مبكرا هكذا أمر مُلفت للانتباه).

أغلب الأطفال من حولي كانو منخرطين في بكاء يصم الآذان، ابنة خالتي المقيدة بنفس المدرسة رفضت مغادرة المنزل أصلا حتى أقنعوها أنني سأعتني بها وأحضرها للمنزل في سلام مع نهاية اليوم الدراسي. أعجبني هذا الدور؛ من لا يخاف يصطحب من يخاف للمنزل فيكون الجميع سعداء. للأسف كان الخائفون أكثر بكثير، وتسبب خوفهم في فوضى عارمة تربك المدرسين طوال القامة أصحاب السترات الثقيلة التي تفوح منها رائحة الكمكمة، فيشخطون في الخائفين فيزداد خوفهم. مع كل شخطة كانت بنت خالتي المرتعدة تحكم قبضتها على يدي، وكنت أحب ذلك.

مجددا، أرجو ألا يظن القارئ أنني أحاول الربط بين هذا العالم وعالمه هو نفسه. أعلم أن اصطحاب غير الخائفين للخائفين للمنزل يبدو كتشبيه بلاغي عميق لأدوار ما يلمّح الكاتب لجذور تكونها، ربما يسأل من يقرأ نفسه: في آخر مرة تم اصطحابي فيها للمنزل، هل كنت أنا الخائف؟ أم أنه كان موقفا انعكست فيه الأدوار؟ وما هي

المدرسة؟ هل هي الحياة؟ هل هي النجاح؟ هل هي المعرفة؟ هل أنا أخاف المعرفة؟ مما أنا خائف؟ هل أنا خائف؟ ... إلخ .

أتمنى ألا يسأل القارئ نفسه هذه الأسئلة لأنني بكل أمانة أنقل لكم فقط ما يدور في ذهني كطفل في الخامسة .

تدخل أبلة شيرين الفصل وتعرّف نفسها كمدرسة «الألعاب»، فأتخيل حوش المدرسة مغطى بأكمله برقعة ليجو أسطورية سنقضي العام كله في بناء مدينة رائعة عليها، إلا أن هذا بالطبع لم يحدث. صوت أبلة شيرين معدني رنان حاد يُبث على مسامعنا من ثقب كبير في وجهها محاط بدائرة حمراء قانية من أحمر الشفاه، تطلب منا أن نتلو عليها أسماءنا بالدور، لا يفهم معظمنا المقصود بالظبط بـ«الدور»، ويتسبب الارتباك في الكثير من اللخبطة التي تصححها الأبلة بتذكير الأطفال بالحيوانات التي يتصرفون مثلها، فهذا حمار لأنه تحدث بدون إذن، وهذه جاموسة لأنها فاتها الدور، وهذا حلوف لأنه وضع إصبعه في أنفه ... وهكذا.

أنظر في وجوه زملائي وأُلاحظ أن القلق يختفي تدريجيا من عليها، ليحل محله تعبير ينم عن الانسحاق، العيون تنظر نحو الأسفل والجميع يتجنبون النظر مباشرة في اتجاه الأبلة. الأصوات تخفت عند الإجابة والأبلة تصرخ بين الحين والآخر: «علّي صوتك يا بهيم»، أو تقطع الهمهات بضربات مدوية من عصاها على الطاولة أمامها فيتطاير الغبار.

عندما سيأتي «الدور» على المقعد الذي أجلس فيه أنطق اسمي. تفيق الأبلة شيرين فجأة من حالة الأوتو بايلوت المملولة وتلتفت نحونا كحيوان ضارٍ وتعوي باتجاهي بصوت ممدود: انت والااااااد؟

ارتعبت، وخفت للغاية من أن كوني ولدا في هذه اللحظة خطأ فادح على ما يبدو، فلقد كنت ولدا لفترة طويلة ولَم أعرف أن هذا قد يوقعني في مشكلة في يوم ما، ولا أعرف أيضا كيف يتوقف المرء عن كونه ولدا لو تطلب الأمر. لَم أدر كيف أرد، هي بعيدة، إلى حد ما، عني ويفصل بيننا الكثير من الرؤوس التي تفوح منها رائحة زيوت الشعر الكريهة. هل أتراجع وأقول إني بنت، طالما كوني ولدا أغضبها لهذا الحد؟ هل أجيب؟ هل لا أجيب؟ أفقت على صوت ضحكات السادة الزملاء الذين رأوا في هذه المفارقة لحظة كوميك ريليف مطلوبة بعد كل هذا التوتر. استطردت الأبلة بصوت تملؤه كراهية عميقة:

إيه اللي مقعدك يالا وسط البنات؟ قوم يا وسخ اقعد مع الولاد.

اكتشفت في هذه اللحظة أن الطريقة التي تم بها توزيع الأطفال علي المقاعد هي على حسب النوع، وأن الصف الذي أنا فيه هو بالكامل من الفتيات، غالبا جرجرتني بنت خالتي إلى هذا الموقف دون أن ألاحظ. ويبدو أن اليد الغليظة التي أجلستنا في البداية

فشلت في إدراك الخلل الذي تسببت فيه ابنة خالتي، ولكن أبلة شيرين، مثل أي جهاز أمني يقظ، لا تكل من الفرز والإحصاء والتأكد من أن الأشياء منسقة بما يخدم المصلحة العامة.

أتت أبلة شيرين هادرة كمجنزرة عسكرية ثم جذبتني من ذراعي بعنف كأنها تقتلع شجيرة صغيرة من التربة، وألقت بي في وجه أحد الزملاء على المقعد المجاور كفوطة مطبخ قذرة، توقفت الضحكات وساد الغرفة صمت ثقيل عندما لاحظ الجميع أن مستوى العنف في التعامل مع الأمر يرجح أن الموضوع جاد. أعتقد أن الكثيرين أدركوا في هذه اللحظة أن مسألة الولاد والبنات تلك مسألة حساسة على ما يبدو ولا يجب التعامل معها بخفة، وغالبا كان هذا بالضبط غرض أبلة شيرين من هذا الاستخدام المفرط والمفاجئ للقوة.

قسوة أبلة شيرين وتوحشها جعلاني أُفكر أنه ربما كانت ابنة خالتي على حق في خوفها الشديد من المدرسة منذ البداية، ربما بحدس ما أدركت أن الوجود في مكان كهذا ينتهي بكارثة آجلا أم عاجلا، أم ربما ساقها عمى خوفها نحو ما كانت تخشاه؟ شعرت بالغباء لمحاولتي الساذجة طوال الطريق أن أقنعها بكل الأشياء المثيرة التي يمكننا فعلها في المدرسة لأزيل قلقها. كنت فعلا متشوقا لكل المغامرات التي سنخوضها سويا في هذا المكان العجيب، وكنت سعيدا أن عالمنا أنا وهي سيتسع بهذه الطريقة. لكن اليوم الأول لم يكن مثاليا. تعلمت في اليوم الأول في المدرسة أن كون المرء ولدا قد يكون شيئا بشعا، وأن الولاد لا يجب أبدا أن يجلسوا بجوار البنات، وأن الإذلال أمام الكثير من الناس شعور مؤلم للغاية.

/ / / فاصل موسيقي / / /

لم تأتِ ابنة خالتي للمدرسة في اليوم التالي، ولا الذي يليه. كانت الأيام التالية على ما أذكر باردة وخالية من الأحداث، أو ربما لا أذكرها لأنها كانت خالية من الانفعالات.

أذكر وجه أبلة شيرين وأحمر شفاهها لأنه كان مضحكا ومخيفا في نفس الوقت، كذلك كان صوتها الحاد مضحكا ومخيفا، كصوت الشرير الكارتوني في فيلم «من أوقع بالأرنب روجر». أذكر برودة جدران الفصل في بداية اليوم وما بعثه لونها الرمادي في نفسي من اكتئاب، وما حول ذلك من العادية هو في ذاكرتي كضباب أبيض محايد. كل مكونات هذه الذكريات في عقلي منفصلة عن بعضها البعض ويستدعي ربطها تدخلا واعيا. عندما أتذكر الإثارة المرتبطة بوقفة الطابور قبل دخول الفصل لأول مرة يختار عقلي تفصيلة ضغطة اليد ليلج منها إلى الحدث، يعلم الله إذا كان أي من هذا حقيقيا أصلا أم أنها الطريقة التي أحب أن أتذكر بها حياتي! لا طريقة لضمان مصداقية أي شيء في عالم يعتمد بالكامل على ما نريد أن نشعر به وليس ما نعرفه، عالم الذكريات أقصد، لا أقصد عالمنا العادي أيها القارئ الكلاسيكي الممل مدمن الرمزية.

بخلاف الشعور الثقيل بالوحدة والاشتياق لابنة خالتي، لم تكن معظم المشاعر في الأيام التالية مثيرة للاهتمام، هناك الكثير من الوجوه الغريبة، والبرابير المضحكة أو العطس في لحظات غير متوقعة، مدرسون لهم أصوات أو شوارب مسلية، تفاصيل كثيرة تستهلك مصروف العقل اليومي من الإدراك وتنهكه لينام نوما هادئا ويحلم أحلاما عادية. لن يستغرق الأمر أكثر من أسبوع ليتسلل للأغلبية الشعور بالانحباس، فتبدأ الصراعات والعنف المتبادل، شعور الجميع باستحالة الخروج من النسق الكريه المفروض (الوجود في المدرسة) يراكم غضبا متناميا ينفس عنه كل طفل بالشكل المتناسب مع تفضيلاته؛ ذوو الأحجام الكبيرة والصحة الوافرة يتلذذون بصفع زملاءهم كلما واتت الفرصة، بينما صغار الحجم الخبثاء يطلقون النكات الحارقة ويجرون بعيدا. الاغتيال المعنوي والتحطيم الممنهج للآخر يبدو لعبة مسلية بعيدة المدى قادرة على تشتيت العقل عن مشاعر الحبس لفترة طويلة، فالصراع بطبيعته يزداد تعقيدا مع الوقت، والانتقام له فصول وحلقات، والانخراط في التفكير في معني الكرامة والاحترام وما يترتب علي ذلك من تغيرات في التجربة اليومية يوفر تسلية تجعل اليوم الدراسي المكرر أقل مللا واعتصارا للروح.

سأحاول في هذه الأيام البقاء على قيد الحياة وتجنب الدهس، وسأقضي الكثير من الوقت أرسم على الأوراق أشياء مرتبطة بشكل أو بآخر بمعاني البطولة، رجالا خارقين منتفخي العضلات، صلاح الدين الأيوبي على صهوة جواد، جنودا فوق دبابات يحملون بنادق عملاقة. كلما قضيت وقتا أطول مع الرسم كلما لاحظت تحسنا، يثير الرسم إعجاب الأطفال فيتعاملون معي بعنف أقل أحيانا، يبدو بكل وضوح أن هناك إحساسا ما بقيمة استثنائية لي كشخص يمتلك قدرة استثنائية، ويُترجم هذا الإحساس إلى انبهار وانسحاق أحيانا أحاول استغلالهما لصالحي، ويترجم أيضا كتوجس عدواني في أحيانٍ أخرى، إلا أن الجميع تقريبا يبدون مهتمين بمحاولات إيجاد وظيفة لهذه الموهبة الَغريبة تفيدهم على المستوى الشخصي، أو ربما يرون في معجزة الرؤية بعين شخص آخر فرصة لخلق لحظة سحرية من النظر في مرآة يعرفون أنها غير صادقة: ارسمني.

/ / / فاصل موسيقي / / /

الأيام الأولى من الدراسة كانت تغلب عليها حالة عامة من التوتر، المدرسون يتعاملون معنا بحذر وتركيز يختلفان عن طريقة تعاملهم مع الطلبة الأكبر عمرا، نتحرك عادة في قطيع متماسك ويشرف أحد المدرسين دائما على أماكن تواجدنا جميعا كوحدة واحدة. تدريجيا سنبدأ في الحصول على بعض الحرية الحركية، وسيُسمح لنا بالجري في حوش المدرسة المحاط بسور عالي. وأحيانا سيُسمح للبعض بالذهاب لدورة المياه الغارقة دائما في بركة من الوحل والمياه ومزيج من المخلفات الإنسانية مختلفة الكتلة والكثافة. فرص الاستكشاف والمغامرة محدودة للغاية، ومشاعر الانطلاق تُختزل غالبا في الجري عديم الجدوى والهدف وتصادم الأجساد العشوائي والصراخ المستمر. كنت أجد كل هذه الفوضى مزعجة للغاية، ودفعني هذا لمحاولة الوجود دائما على مبعدة من مركز الأشياء.

أكثر اللحظات إثارة بالنسبة لي في هذا الوقت كانت في الاكتشافات الجغرافية، كالعثور على طريقة مختصرة أو جديدة للوصول للحمام، أو اكتشاف باب مهمل يؤدي لمساحة جديدة أو مكان مختلف، غرفة بها آلات موسيقية غريبة سيُشخط فينا بالطبع لو لمسناها، أو مكتب به صندوق زجاجي يحتوي على كؤوس وجوائز غريبة الأشكال، أو حديقة صغيرة بها نباتات متنوعة تحتها لافتات خشبية، أي شيء بخلاف فصل كان بالنسبة لي فرصة للتعلّم، والوجود في هذه الغرف كان عادة خطأ عشوائي يتم تصحيحه بسرعة من قبل المعلّمين.

مع اتساع المساحة المسموح لنا باستكشافها وانطلاقنا في جنبات الحوش وأركانه الغريبة، ظل هناك مكان وحيد يستحيل أن يُسمح لنا بالتواجد فيه مهما كانت الظروف؛ الدور الثاني من المبنى الذي كان فصلنا فيه. كان هناك سلّم وحيد يقود لهذا الدور في نهاية الممر القاتم، وكان بئر هذا السلم، أو قاعه، أكثر بقاع المدرسة – التي رأيتها في هذه الفترة – إظلاما. كنّا في طريقنا للفصل نمر بجوار هذا السلم قبل أن ننعطف إلى داخل الممر الطويل، وكان هناك دوما مدرس بيننا وبينه، يعاجل الشاردين بضربة خفيفة من الخيزرانة إذا ركضوا في اتجاه السلم بدلا من الممر. التزام المدرسين بمنع الأطفال حتى من الجلوس على درجات السلم في فترات الفسحة زرع في نفوس الجميع اقتناعا راسخا بأنه لابد من تجنب هذا السلم اللعين، وأيا كان المجهول الذي يقود إليه في الأعلى.

طابور الصباح لأول مرة ، يأمرنا مدرس ما بالوقوف صفا فوق أرض ترابية محاطين بصفوف من تلاميذ آخرين، فنمتثل ونقف هناك نحدق في اللاشيء دون أدنى فكرة عما هو على وشك الحدوث، هل هذه هي نهاية التجربة وتمكننا الآن العودة لبيوتنا؟ هل سيخبروننا حالا بأهم شيء في العالم؟ هل لهذا نحن مجتمعون ومطالبون بالصمت؟ يدق القلب ويتقافز الأطفال من فرط الإثارة، ثم نسمع أصوات قرقعة غامضة وبعض الصفير ينهمر علينا من علو، يهمهم الجميع، ننظر لأعلى و«نرى» الصوت مصبوبا من مكبر الصوت المعدني المثبت في أعلى المبنى الرمادي المهيب. يأتي الصوت صادحا ومحشرجا ليعلن عن نفسه بثقة تصم الآذان، إنها أبلة شيرين تفتتح اليوم بجملة مرعبة عندما تخرج من حنجرة كحنجرتها: «صباح الخير يا ولاااد.»

أغلبنا سمع أصواتا عبر مكبرات الصوت من قبل، في الأفراح الشعبية أو على عربات تبيع أشياء، أو النموذج الأشهر؛ الأذان. بالنسبة لي كانت هذه أصواتا افترضت أنها خُلقت هكذا. لَم أر أبدا البشر المتسببين في هذه الظواهر الصوتية ، الآذان مثلا شيء يحدث دائما بانضباط غير بشري، والمؤذن في خيالي هو تلك الصفيحة مخروطية الشكل عديمة الوجه والتعبير، وليس إنسانا يتعب وينسى، ويبدو الأمر منطقيا لأن الأذان لم ينقطع أبدا منذ علمت بوجوده، والأذان لا يعبأ بما يحدث حوله، لو أن هناك مشاجرة في الشارع ينطلق الأذان، لو أن هناك رجلا عجوزا تعثر والتف حوله الجميع يستمر الآذان، الآذان بكل تأكيد آلة صفيحية مبرمجة لأداء مهمة محددة ولا شيء شيء آخر بغض النظر عما حوله، مثل اللمبة ومقبض الباب. الأذان ليس إنسانا، وسيظل يؤدي مهمته الصوتية حتى لو خلت الدنيا من البشر، رأيت ذلك يحدث

بالفعل مرة عندما نمت في بيت جدتي ثم صحوت لأجد نفسي في سيارة في الطريق للبيت في وقت متأخر للغاية، كانت الشوارع مظلمة وخالية تماما من كل شيء، ولا صوت حولنا سوى صوت محرك السيارة و طرطشة المياه تحت عجلاتها وكأن العالم انتهى وخلاص كدا، كدت أموت رعبا لولا أن أمي كانت تحتضنني، ولا يبدو عليها أي قلق، وفجأة، في وسط كل هذا اللاشيء، انطلق الآذان من آلاف الاتجاهات من حولنا بكل قوة ليدعو الناس لنفس ما يدعوهم له عادة ، أي ناس؟ لا أعلم، وأين هم الآن؟ لا يهتم الأذان.

ولهذا، فهناك شيء مذهل في رؤية شخص بينك وبينه خطوات قليلة يحدّثك ويخاطبك ممسكا بآلة تحول صوته إلى هذا الوجود الطاغي الذي يعلو فوق الجميع. شعور مخيف قليلا أن تشاهد كيف تنصاع الآلة لأي هراء تنطق به أبلة شيرين وتمنحه دون فلترة مستوى ثابتا من التبجيل، رغم أن ما تقوله معظم الوقت هراء متلعثم محدود البلاغة. بل أن حتى سعال أبلة شيرين وحديثها الهامس للمدير كانت الآلة تضخمهما بنفس الانضباط. أيتها الآلة! ماذا تفعلين؟!

انتهاء الطابور كان فرصة للمرور بجوار السلم، واحتمالية رؤية شيء ما؛ شخص نازل، أو آخر طالع، أي تفصيلة تساعد على تخيل ما يدور بالأعلى. أعتقد أن كل شيء في المدرسة باستثناء هذا السلم كان يقينيا، كان يقينيا أن الفصل مكان كريه، والممر مكان كريه، والحوش مكان كريه يدهس فيه الأطفال الكبار الصغار ويصفعونهم، نحن جميعا هنا، ضد رغبتنا، ولا سبيل للخروج أبدا، والشيء الأكثر إيلاما هو أننا سنخرج في نهاية اليوم، ولكن رغم كل ما نحمله من كراهية لهذا المكان البغيض، سنعود طواعية غدا، ولن تنفع الشكوى ولا البكاء ولا أي شيء شيء آخر، الشئ الأكثر إيلاما فعلا أننا سنعود، طواعية.

/ / / فاصل موسيقي لمدة ١٠ دقائق / / /

كان في السلم والدور الثاني وما يحيط بهما من غموض أمل ما، نعرف أن الدور الثاني به فصول أيضا، وتمكننا رؤية ذلك من خارج المبنى، تمكننا رؤية أن هناك أكثر من دور، إنه ليس دورا ثانيا فقط، نعلم أيضا أن الطلبة الأكبر يدرسون في هذه الأدوار، هم فقط من يُسمح لهم باستخدام السلم للصعود، هم فقط، أما نحن فلا، ما الذي قدموه يا ترى ليُسمح لهم، ماذا يحدث فوق؟ أموت وأعرف.

تمر الأيام بطيئة للغاية بالطبع ويأتي في النهاية يوم الأجازة الأول، وأعلم أنني لن أذهب للمدرسة غدا لأنه «أجازة» والأجازة تعني أنني سأرى جدتي. يغمرني شعور ببهجة مصفاة، كل خلية في جسدي الآن سعيدة، على يقين بأن غدا سيكون يوما عظيما، والأعظم أن هذا سيحدث كل أسبوع. أيامها كانت الأجازة الأسبوعية يوما واحدا في الأسبوع ولم تكن يومين مثل هذه الأيام، «كان فيه بركة وكنّا سعداء :)» معظم ما كنت أسمعه من جدتي هو جمل مثل تلك. تصف جدتي ماضيا عامرا بالخير في الريف الذي نشأت فيه فتملأني مشاعر مختلطة بين الاستغراب والضجر

والكآبة، فجدتي شخص ذو واقع لا طريقة دقيقة لتوصيفه، فلا هي حزينة ولا هي سعيدة، هي في حالة جمود أو استقرار شبه تام، تزوجت وأنجبت وربت أبناءها حتى تزوجوا جميعا وأنجبوا، وهي الآن تجلس على سريرها تراقب الأشياء وتحاول الانفعال. هي تضحك أحيانا و تبدي رضاها عن طعم الوجبات أحيانا و تبتسم لنفسها وهي سرحانة أو تدندن ألحانا وكلمات غرائبية عن حَمَام يأكل أشياء وجمال تذهب لأماكن، بصوت خفيض وفقط في حالة إذا لم يكن هناك أحد يتابعَها، ولكنّها أيضا تنخرط فجأة في نوبات من الميلودراما الطاحنة، وتخلق مونولوجات مسرحية مطوّلة تصف فيها حياتها ببلاغة مؤثرة كتجربة شديدة الإيلام والكآبة. تقول كثيرا إنها لم تر في حياتها يوما جميلا أبدا، وإن كل من حولها هم فقط مصادر للألم والاستغلال، وإن أحدا لا يُقدّر تعبها وتضحياتها –الحقيقيين بكل تأكيد– وإن فقط من يستحقون الحب هم أولئك الراحلون.

يصيبني هذا الكلام بحزن عميق، وشعور لاذع بالعار للوجود على قيد الحياة، فجدتي لا تكذب، ورغم حبها الشديد للمبالغات إلا أنها شخص جاد للغاية، وعلاقتها مع الآخرين تقوم على شعور قوي بالندية لا يتسق مع الابتزاز العاطفي، لذا آخذ مونولوجاتها الميلودرامية بجدية شديدة وأشعر دائما بأن هناك مبررا قويا وإحساسا صادقا وراء ما تقوله رغم بشاعته وتكراريته المملة. كل مرة تبدأ فيها في نوبة من تلك النوبات يبدو الأمر كأنه فعلا نهاية العالم، ورغم أن ما تمليه العاطفة، كتصرف أمثل، هو فعلا الإنصات المُخلص الصادق، إلا أن عقلها ولسانها يأخذانها هي ومن يستمع في دوامات من اللاشيء، فأرغب في الفكاك. بعد وقت أفكر في هذه اللحظات وأراها كرقصة سوداوية كئيبة لا غرض منها سوى خلق سحابة ثقيلة من الحزن الذي يمتد دوما أطول مما يجب، وينزاح أخيرا بفعل فاعل مفسحا المجال لشعور مريح، كعودة الإنترنت بعد انقطاع، وكأن جدتي تصنع هذه اللحظات عامدة لتستمتع بقدرتها على إنهائها وقتما تحب، وكأن في هذا السلوك المدمّر للذات والآخرين إحساسا ما بالبقاء على قيد الحياة.

علاقتي بزيارة جدتي في الأجازة تحوّلت من سعادة طفولية ساذجة في بداية الأمر إلى تجربة مختلطة بين البهجة والحزن الدفين، أسبوعا بعد أسبوع. يلوث بهجة الأجازة المصفاة يقين راسخ بأن لهذه البهجة –بل ولكل بهجة– نهاية؛ يوم الأجازة مهما طال ينتهي ولا مفر من العودة للمدرسة في نهار السبت لاستقبال أسبوع كامل من المعاناة، بل أن لحظة وصول يوم الخميس هي في الحقيقة أبعد لحظة عن يوم الخميس القادم، وكل ساعة تمر من يوم الخميس هي ساعة ضاعت و فرصة للسعادة ربما لم تحقق هدفها. أصبح الاقتراب من يوم الأجازة يراكم في داخلي ببطء شعورا مركبا يمكن وصفه كترقب حزين أو يأس سعيد، شعور مركب غير مرض ينعكس في هيستيريا عمياء تعلن عن نفسها في انطلاق حركي أهوج لحظة الخروج من باب المدرسة، انطلاق عشوائي صارخ يحاول أن يوصل للمحيط أن شيئا ما ليس على ما يرام، انفجار سعيد المظهر إلا أن في عمقه حزنا غاضبا وإحساسا قويا بالعجز. ورغم اختباء هذا الغضب في مظاهر طفولية عادية إلا أن عنفا ما كان يغلّف كل شئ؛ ركل العلب الصفيحية الفارغة، وتقطيف أوراق الأشجار المسالمة وإلقاء الطوب على القطط

والكلاب، كانت كلها مؤشرات على أن الفضول والأمل في شيء جديد يختفيان وتحل محلهما رغبة في التقاطع مع هذا الواقع الرديء بطريقة تفوقه رداءة. هل هذا هو السبب في معركة وحشية انخرطتُ فيها في أحد أيام الخميس بعد نهاية اليوم الدراسي في حديقة بجوار المدرسة، ومتعة كانت تغمرني وأنا أغسل دم غريمي المعجون في الطين والنجيلة من تحت أظافري؟ أم أن ما حدث كان لابد وأن يحدث لسبب ما، وأنا الآن فقط أخلق هذا الرابط؟ لا أعلم.

/ / / فاصل موسيقي / / /

بعد المعركة مباشرة كانت هناك حالة من الفراغ في المعنى. لم أستطع إدراك معنى ما حدث أو ما الذي يجب أن يُفعل بناء عليه، والمقلق أنني لم أشعر بضرورة أصلا لمحاولة خلق هذا المعنى، مشاهدة العنف كانت دوما متعة مرتبطة في مخيلتي بالمغزى أو التعلّم، فما بالك باختبار العنف شخصيا والانخراط الاختياري فيه؟! فأين الدرس؟

هذا الغياب للمعنى ألقى في داخلي رعبا دفعني لتكرار المواقف القادرة على إذكاء انفعالات قوية، و بالتدريج، مع تكرار التجارب بدأت أربط بين شعوري في هذه التجارب وبين المعنى، لا أدري إن كان المعنى موجودا وأنني كنت فقط أعثر عليه، أم أنني أوهمت نفسي بوجوده، ليكون هناك معنى، لأنجو بنفسي من رعب اللاشيء. وبالتدريج فقدت القدرة علي «عدم الشعور بالمعنى»، وهي قدرة كم كنت أتمنى الاحتفاظ بها في مراحل لاحقة في حياتي، حتى أتى يوم سبت ما.

كنّا نقترب من نهاية الفصل العام الدراسي، وبدأ الحديث في البيوت عن امتحانات وأجازة كبيرة وصيف وسفر ومشاريع عملاقة فتحت في عقلي أبوابا صغيرة لبعض الخيال، إلا أن اليقين كان دوما الذهاب للمدرسة، كل يوم ما عدا الجمعة، متى هذه الأجازة الأسطورية الكبرى؟ لا تأتي أبدا. وفي سبت عادي حضرت الطابور متأخرا، فكنت في نهايته. طوال الطابور كنت معزولاَ عن كلِ شيء، لم ألاحظ حتى الموسيقى أو الأشياء، سرت مخدرا وراء الآخرين نحو الفصل ولَم ألاحظ السلم أو أفكر فيه، دخلت الفصل ولَم يكن هناك مدرس وكان الفصل يعج بفوضى عارمة. كل شيء في هذا اليوم كان عديم الحضور وكأن شيئا ما نفد، جلست على الدكة أحدق في الضوء الأبيض البارد الداخل إلينا من شبابيك الفصل المستطيلة العريضة، حاولت شغل نفسي بمحاولة ملاحظة الفرق بين الضوء الداخل من الشباك مباشرة وذاك العابر من زجاج الشبابيك الغليظ، حركت رأسي أفقيا يمينا ويسارا وتأملت انكسارات الصور في الخارج وتغييرات الألوان وسرحت كثيرا في خيالات لا معنى لها بخصوص الرؤية وكيف تعمل عيوننا ولماذا هي كروية وليست مسطحة مثل التلفزيون ... كان الواقع ينساب من بين أصابعي وكنت أحاول بقوة أن أرى فيما يحيطني شيئا قادرا على إبقائي متيقظا، حتى استفقت على يد طالب بجواري تهزني، نظرت له فقال: يللا! نظرت حولي فرأيت الجميع يتركون مقاعدهم وحالة من الهرج والمرج يحاول أحد المدرسين تنظيمها، أخرجونا من الفصول فرأيت كل طلاب الصف في طابور بطول الممر، وفي نهاية الممر، قبل السلم مباشرة كانت هناك امرأتان ورجل يرتدون معاطف بيضاء طويلةَ ويحملون صندوق ثلج بلاستيكيا كبيرا

وفي أيديهم أوراق وأكياس وأشياء. فوضى عارمة بالطبع في المكان، والأطفال مرعوبون، تذكرت اليوم الأول من المدرسة، شعرت أن هذا اليوم قد يكون الأخير، فهو يشبه اليوم الأول تماما إلا أن الأشياء معكوسة، فنحن ننظر في عكس الاتجاه وبدلا من الاصطفاف قبل الدخول للفصول نصطف خارجين منها، ونحن في بداية اليوم، لابد وأن يكون هذا اليوم الأخير، أتمنى أن يكون هذا اليوم الأخير، ولكني خائف للغاية، النساء في المعاطف البيضاء على وجوههن ثبات ووجوم، ويبدين وكأنهن على وشك فعل شيء فعلنه كثيرا من قبل. وعلى العكس من أول يوم، فأنا الآن وحدي، وابنة خالتي ليست بجواري لأضغط على يدها وأشعر بالأمان.

بدأ المدرسون في اقتياد الأطفال واحدا تلو الآخر نحو النساء ذوات المعاطف البيضاء، تنظر النساء للأطفال ويسألنهم بعض الأسئلة ثم يفتحن أفواههم وآذانهم وينظرن فيها، ثم تشير إحداهن نحو السلم ويختفي الطفل في ظلامه صاعدا نحو المجهول. أتى دوري وشلّني الخوف، لم أتحرك من مكاني وجذبني مدرس عملاق من يدي، سلمني لإحدى النساء فقبضت على معصمي بقوة وقالت دون مشاعر: ماتخافش يا ولا. ثم جرتني لأواجه الأخرى. سألتني أسئلة لا أذكرها أجبت عليها جميعا بـ«ما أعرفش». زعقت وجذبت وجنتي بعنف ونظرت داخل فمي، كنت قد قررت عدم البكاء، ولكن عندما ضغطت فكي لأفتح فمي شعرت بالانسحاق وبكيت، ضاع صوت بكائي في صوت بكاء الأطفال من خلفي. قالت: اطلع فوق. ودفعتني باتجاه السلم. مزقوقا وجدت نفسي فجأة أمام الدرجة الأولى من السلم ودرابزينه الأسمنتي الناعم يمتد من الأعلى للأسفل كيد الله الممدودة للعباد، عيناي غارقتان في الدموع ونَفَسي مضطرب بينما أشهق محاولا إيقاف البكاء. شعرت في هذه اللحظة أنني أموت.

صعدت السلم في بطء ومع كل درجة أصعدها كنت أشعر باقترابي من شيء كبير، يخفت صوت بكاء الأطفال وصراخهم، ويبتعد ليحل محله صمت مهيب بالأعلى، عندما وصلت لمنتصف المسافة ما بين القمة والقاع خطرت لي لأول مرة فكرة الهروب.

وصلت للدور الثاني، ودلفت ببطء للممر. كان كل شيء بالأعلى مطابقا لما بالأسفل ومختلفا تمام الاختلاف في نفس الوقت، الحوائط نفس الحوائط والأبواب نفس الأبواب، والبناء نفس البناء، لكن شيئا جذريا مختلف تمام الاختلاف، ربما زاوية الإضاءة؟ ربما رؤية قمم الأشجار بدلا من جذوعها؟ وربما فقط أن إدراكي لكوني في الطابق الثاني جعل وعيي بكل شيء مشوها. الشعور العام كان شعورا ما بالانكشاف، اللحظة التي انتظرتها طوال هذا الوقت تلقي نفسها أمامي الآن في استسلام وكأنها تقول ها أنا ذا، فماذا أنت فاعل؟ أنساق مخدرا نحو نهاية الممر دون تفكير، وإيمان راسخ في داخلي أن هذا هو ما يجب عليّ فعله.

بينما أتقدم ببطء في الممر، أرى من الأبواب المفتوحة فصولا دراسية يجلس بها طلبة ينظرون لسبورات مكتوبة عليها أشياء غريبة. الفصول تشبه فصولنا بالأسفل إلا أنها لسبب ما مختلفة، بعضها مزين والبعض الآخر به خرائط ولوحات كبيرة

على الحائط عليها كلام. الفصول أهدأ ولا صراخ فيها، وعندما أسترق النظر للداخل ينظر لي المدرسون والطلبة ويبتسمون ابتسامة مخيفة فأدير وجهي مستمرا في طريقي.

بينما أقترب من نهاية الممر أرى غرفة استثنائية لا شبيه لها بالأسفل، حوائطها الخارجية مدهونة بطلاء حديث أبيض لامع يقطعه في المنتصف خط أسود أنيق، وبابها من الألوميتال وليس بابا خشبيا قديما مثل باقي الفصول، شباكها ممترس بحديد مزخرف ومدهون بالأبيض أيضا، وبجوار الباب هناك جهاز تكييف كبير بمروحتين، وأمام الباب على الجانب الآخر من الممر هناك ثلاثة أصص بلاستيكية بثلاث شجيرات خضراء يانعة، الزرعات متشابهات بشكل مريب ورؤيتها تذكرني بمعركة الحديقة فأرتبك ويدق قلبي بسرعة، الهواء المندفع من مروحتَيْ التكييف يلفح الزرع فترتعش أوراقه فيزداد توتري. أمر بين التكييف والشجيرات مستسلما شاخصا بصري نحو المجهول، يفاجئني الهواء ساخنا وقد توقعته باردا، ترتبك حواسي، وأشعر للحظة أن مخي قال بردا بينما قالت بشرتي حرًّا، فأتوه وأشعر أن حواسي انفصلت للحظة عن المشهد. أمد يدي لمقبض الباب المعدني وأدفعه دون تفكير وأدخل.

/ / / فاصل موسيقي / / /

في الداخل المكان لا رائحة له، غرفة صغيرة للغاية، أصغر من كل الفصول، حوائطها بيضاء نضيفة وبها دولاب وبجواره ما يشبه الثلاجة، وعلى الحائط لوحات كبيرة مرسومة عليها أجسام بشرية مبقورة وأعضاءها الداخلية ظاهرة، ضلوع وعضلات وأمعاء وجماجم، وهناك رجل بدين كروي التكوين يرتدي معطفا أبيض يعطيني ظهره ويبدو منشغلا بشيء ما في يده، يلتفت الرجل نصف التفاتة ويشير لسرير صغير غريب ويقول: اطلع هنا يا حبيبي. على السرير قماشة بيضاء رقيقة على طرفها بقعة حمراء صغيرة للغاية. الرجل ذو وجه بشوش وخدود حمراء لطيفة وذقن بيضاء كبيرة ونظارة طبية دائرية تغطي عيناه الزرقاوين. كان منشغلا بأشياء في يده لم أرها، بدا مرتبكا قليلا لكن دون ذعر، ثم استدار فجأة وسألني: انت اسمك محمد صح؟ أجبت بالإيجاب، فقال: شفت بقى أنا عارف كل حاجة إزاي؟ لم أجب، فنظر لوجهي لأول مرة بشكل مباشر وابتسم، وضع يده العملاقة على كتفي وهمَّ بقول شيء ما لكنه لم يجد ما يقوله فاستدار مجددا في الغرفة الضئيلة التي تتسع لجسده الضخم بالكاد، والتقط شيئا من ورائه وبدأ في التعامل معه. وبينما يستدير فجأة، وهو يأخذ نفسا عميقا، ينفتح الباب الألوميتال فجأة محدثا دويا، ويومض ضوء الشمس من الخارج في عيني. لا يلتفت الرجل، أشعر بوخزة حارقة في كتفي وكأن عمودا معدنيا سميكا انغرس فيه، أنظر لكتفي وأرى ثقبا صغيرا للغاية وفوقه نقطة دماء مكورة لامعة. ينغلق الباب ببطء ويختفي الضوء ووجه الرجل أمامي يحدق فيّ بتركيز.

/ / / فاصل موسيقي قصير / / /

أنـا مرتبـك للغاية، أتوقع أن يتوقف الألم عنـد نقطة معينة، إلا أنه لا يتوقف ويسـتمر في التزايـد كطوفان. يردد الرجل المكوّر بطريقـة إليكترونية رتيبة: معلش ... معلـش ... معلـش. لم أر ماذا غرس الرجل في كتفي. كآلاف من العناكب، ينتشـر في داخلـي رعـب لـم أختبره من قبل، أحاول الخروج، أقول: عاوز أخرج ... عاوز أخرج. يخرج الكلام من فمي بطيئا ومتفسخا ، أحاول الحركة فأشـعر بأطرافي تتخـدل، أرى الغرفة تتسـع ببطء وتبتعد جدرانها عـن بعضها البعض حتى تصبح قاعـة كبيـرة فوقها مئات المصابيح السـاطعة المعلقة في الفضاء، أرى حولي في جميع الاتجاهـات مئات الأسـرّة المصطفة بنظام يجلس عليها أطفال في مثل حجمي، وأمام كل طفـل رجـل عمـلاق مكوّر مثل هذا الذي أمامي. وراء كل هذا، أو حوله، أرى قبة عملاقة تحيط بكل شـيء. القبة وكأنها غطاء زجاجي على شـكل نصف كرة يغطي هذا المشـهد بأكمله ويعزله عن محيط أكبر وراءه، القبة مصنوعة من نسـيج هلامي إسـفنجي به فجوات عشـوائية الشـكل تغلب عليها الاستدارة تتسع وتضيق في إيقـاع يشـبه التنفس، أقرب لقماش مصنوع من خيـوط لينة غليظة للغاية، خيوط شـفافة تلتمـع عليها بين الحـين والآخر نقاط من أضواء خافتة ملونة.

/ / / فاصل موسيقي قصير / / / /

وهواء بارد يلفح وجهي وجسدي يعرق. الرجل المكوّر يحدثني وما يقوله يذوب في أذني، لم أعد أسمع ما يقوله ككلمات ولكن كأصوات مجردة ونغمات تعلو وتنخفض وتغلظ وتحتد، مثل الكلام ولكنه ليس كلاما. بعد ذلك بأعوام كثيرة -أو قبله- سأستمع لموسيقى إليكترونية تجريبية مكونة من ذبذبات مجرّدة، وسأتذكر أن هذا كان بالضبط صوت الرجل دائري الشكل، وستسري في جسدي قشعريرة. لا أفهم ما يقول ولكني أشعر بما يريد إيصاله لي. أشعر أنه يريد مني التوقف عن محاولة النهوض، وأنني يجب أن أمتثل لما يأمرني به. يبدأ وجهه نفسه في الذوبان، تغطس شعيرات ذقنه في داخل وجهه ويختفي بروز أنفه بالتدريج ثم تغطس العيون لتصبح مجرد نتوء كروي صغير في تكوير وجهه الذي أصبح بالكامل ككتلة عجينية مترجرجة. الرعب في داخلي لم يعد رعبا، ولكن شعورا مجردا بالرغبة في أن يتوقف ما يحدث أمامي، أو على الأقل في الابتعاد عنه، أشعر وكأنني في كابوس، ورغم بشاعته فأنا فقط مستاء، شعورا سيراودني كثيرا في كوابيس لاحقة في حياتي، أو سيسهم كثيرا في تشكيل علاقتي عموما بحياتي.

/ / / فاصل موسيقي قصير / / / /

مع الوقت يزداد هذا الشعور بالاستياء تجردا ، إلى يقتصر على الشعور بالتنافر مع الموقف دون إدراك للسبب. ربما بفعل المادة التي حُقنت بها أسترخي وأستسلم لحالة ما من الطفو. مع غياب الذعر عن اللحظة يهدأ الشعور وتحدث حالة مؤقتة من السكون والاتزان، ويتسلل لي استمتاع ما، بينما أتوقف عن المقاومة ومحاولات الهروب، وأشعر بابتسامة مهلوسة ترتسم على وجهي، وعندها يبدي الرجل الكروي – أو ما تبقى منه أو ما يرمز إليه ربما – المزيد من المسالمة، وتنعم الأصوات المنبعثة منه إلى

نغمات مريحة وأقل غلظة وأكثر استقرارا، تبدأ ملامحه وتفاصيل جسده في الذوبان أكثر وأكثر ويتحول هو بالكامل لكرة، تغيب عن كتلته اللزوجة السائلة ويحل محلها بالتدريج فضاء مغبش، يتحول من تجسد بشري إلى مجرد ومضة كروية من التواجد، كتلة محاطة بفراغ، أنظر حولي وأرى الرجال الدائريين وقد تحولوا أيضا لكرات مشابهة والصبيان لا يزالون على حالتهم البشرية، أرفع يدي متثاقلا وأنظر لها لأتأكد أنني مازلت كما أنا، فأجد أنني مازلت كما أنا.

/ / / فاصل موسيقي قصير / / /

بشكل أو بآخر، ورغم تشوش حواسي وعجزي عن التفكير بشكل متزن، أدرك أنني أمر بتجربة ما الآن، أو أن شيئا يحدث لي، شيئا مهما جدا. ألاحظ أن كل ما حولي يعمل عكس إرادتي ومعها في نفس الوقت، فلما كنت خائفا من الرجل طالبا للفكاك منه كان انعكاس صورته متوحشا مخيفا، بينما عندما استسلمت ولم أعبأ تجرّدتْ صورته وأصبحت لاشيء، لست أنا من اختار شكل الرجل الكروي وخصائصه. ورغم ملاحظتي للتغيرات التي تطرأ على المحيط بفعل تفكيري، يظل عنصر ما ثابتا؛ القبة. فالأشياء تحت القبة تتغير وتأخذ انعكاسات بصرية للدراما في عقلي بينما تظل القبة ثابتة، وكأن المكان الذي أنا فيه الآن هو عالم بين عالمين، بين العالم الذي أنا فيه، أذهب للمدرسة وأحدّث الناس وأمشي في الأسواق، وفوق ذلك عالم آخر هو عالم ما وراء القبة الإسفنجية، وبينهما هذا الفضاء المسرحي الذي يستجيب فيه الرجل الدائري لتخيلاتي وما أريده من دراما.

بدت القبة بعيدة للغاية، وبدا الغرض الأساسي من وجودها هو فصل العالمين عن الثالث، لكن الثقوب بداخلها وكونها إسفنجية شفافة فضحت ما وراءها، أو على الأقل فضحت وجودها، فتولد بداخلي اقتناع تام أنني يجب أن أكون على الجانب الآخر من هذه القبة. نظرت للرجل الذي أصبح ومضة، وسأصفه من الآن مباشرة بـ«الومضة». نظرت له وأعربت في عقلي عن رغبتي في عبور القبة للجانب الآخر، تحول لون الومضة للون أصفر مريح وصدرت عنه ذبذبة حادة قصيرة قرأها عقلي كشئ يشبه: أكيد؟ لم يكن السؤال استنكاريا أو مُهددا، ولكنه كان يبدو فقط توكيديا، كالنافذة التي تظهر على شاشة الموبايل قبل تفعيل عملية شراء أو تثبيت تحديث، هل أنت متأكد؟ فأومأت بالإيجاب. فور ما أومأت، رأيتني أنا والومضة نطفو لأعلى مبتعدين عن الأرض، أو وكأن الأرض ابتعدت عنّا، نظرت حولي فرأيت الأطفال الآخرين وومضاتهم متراصين في نسق بدأ الآن يأخذ شكلا كرويا، وكأنني كنت نقطة على سطح كرة وأبتعد الآن عنها. زاد هذا من شعوري أن هذا العالم تحت القبة هو بمثابة بروفة أو نموذج للعالم الذي أعيش فيه، حتى خصائصه البصرية مشابهة، ولكن أكثر بساطة، وبينما أبتعد عن الأطفال بالأسفل كنت أرى كيف كانوا يتحركون بأعين مغلقة ويمارسون أشياء تشبه الحياة العادية، فهذا يجلس ويحرّك يده كأنه يكتب، وهذا يحرّك ذراعيه وساقيه كأنه يجري، وهذا يحرّك فمه وتعبيرات وجهه متغضنة كأنه منخرط في مناقشة حامية للغاية، وكلٌ بجواره ومضته الإلكترونية العملاقة تطفو بجواره وتحوم حوله وكأنها تسجل أو تبث، لا أدري.

/ / / فاصل موسيقي قصير / / /

تحت القبة، كان النظر يخلق المشهد، وقواعد المنظور تتلوى استجابة لاتجاه النظر، فلا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار، فقط أفق ممتد أينما أوجه بصري، وكل هذا كان تحت القبة التي كانت فوقنا بشكل منطقي وكانت حركتنا في اتجاهها بطيئة ثابتة، الفجوات الصغيرة التي كنت أراها من الأسفل في حجمي مثلا أو أكبر قليلا عندما أقترب منها تبدو شاسعة بحجم مدن عملاقة، والخيوط المطاطة التي تكوّن نسيج القبة، يقارب عرض الواحدة منها عرض بناية ضخمة أو ناطحة سحاب، وعندما أقترب أكثر أرى كيف تنبض هذه الخيوط وتنقبض وتنبسط وكأنها عضو في جسد كائن حي، وأرى الأضواء الصغيرة الملونة تمرق في داخلها كشحنات تعبر من مكان لمكان. بينما نمر من خلال إحدى الفجوات يعصف بأذني ألم مكتوم وكأن صوتا عاليا جدا يتصاعد، إلا أنني لا أسمع شيئا، بل في الحقيقة أتوجه نحو الصمت، وأرى، عبر الفجوة، الخارج أسودا كاحلا، وبينما نغادر محتوى الفجوة يزداد ألم الصمت في التصاعد وأشعر أن الزمن يتباطأ، وتأتي لحظة العبور كانفجار صغير مكتوم مثل قبلة قوية عالية، بعد تصاعد أسطوري وألم يعتصر أذني، ينتهي الأمر بفرقعة صغيرة للغاية كالزغطة.

/ / / فاصل موسيقي قصير / / /

فور عبوري للجانب الآخر ينقلب السواد الذي كنت أراه من داخل القبة إلى بياض ناصع، وأرى تكوّرَ القبة من الخارج بوضوح، إلا أن القبة نفسها الآن صغيرة للغاية، مثل كرة في حجم قبضة يدي، والأضواء الملونة، التي كنت أراها من الداخل مغبشة، هي الآن واضحة أمامي كأقواس رفيعة للغاية مثل خيوط ضوء منبثقة من جوانب الكرة، توصل نقاطا ما بأخرى. أول تفسير خطر ببالي لهذا المنظر هو أن هذه الخيوط هي ما تربط الذكريات ببعضها البعض، ورأيت خيطا محددا أزرق اللون وعلمت بوضوح أن هذا الخيط يربط بين كلمتين لهما نفس القافية، وشعرت أن العلاقة بين هاتين الكلمتين مضحكة للغاية، وأنني في يوم ما سأكون في داخل القبة وسأفكر في العلاقة بين هاتين الكلمتين وأضحك وأتذكر هذا الخيط الأزرق اللطيف، إلا أنني لم أعرف أبدا الكلمتين.

الومضة التي اصطحبتني للخارج اختفت أثناء العبور الرهيب، وأنا الآن لا أرى نفسي ولا أرى حتى يدي إذا نظرت لها، أرى فقط القبة أمامي والفجوات في نسيجها تضيق ببطء، وأرى عبر زجاجها الشفاف خيالات لأشياء يبدو أنها تحدث بالداخل، أقرّب الكرة من عيني وأرى ما يشبه عرضا ضوئيا يسطع من داخل الكرة، وكأن جهاز عرض projector مثبت في مركزها يبث مادة بصرية على حوائط الكرة من الداخل، أقرب الكرة من عيني أكثر وأكثر وأرى ملامح الصورة تتضح ببطء كأني أضبط عدسة الـ projector ، أزيد من تقريب الكرة من عيني حتى توشك أن تلمس حدقتي، أقرب أكثر وأكثر حتى تلمس الكرة عيني بالفعل، وفي هذه اللحظة أشعر بلسعة حارقة في عيني وأرى بياضا يملأ كل شيء ثم أفتح عيني لأرى نفسي في غرفة

العيادة والرجل المكوّر يحدق في وجهي في قلق واضح ويلطم خدي برفق، يتسلل صوته لي متفسخا في البداية ثم يتضح سريعا: محمد ... محمد ... محمد ...

يقولها بهدوء واحترافية وثبات، دون ذعر رغم ما يبدو على وجهه من قلق وتركيز، ينتظر أن أفيق متأكدا أنني سأفيق، وأفيق فعلا لأجد نفسي في كامل وعيي، لا دوخة ولا وهن ولا حتى نعاس، صاحيا يقظا في كامل قواي العقلية والبدنية، آخذ نفسا عميقا وأبربش بعيني أكثر من مرة ثم أنظر للرجل المكوّر في وجهه في امتثال، ينظر في عيني مباشرة بجدية ويقول: «اللي حصل النهاردا دا ... مش هاتقول لحد عليه أبدا، تمام؟»

أنظر له وأومئ برأسي، وينظر هو لي ويصمت ويبتسم ابتسامة تقول: أعلم أنك ستقول.

وأبتسم له أيضا وكأنني أقول: أكيد هاقول.

/ / / موسيقى ختامية / / / /

أنديل رسام كاريكاتير، كاتب صحفي، سيناريست، فنان تشكيلي وممثل.
يعمل بالصحافة والسينما والانترنت منذ ٢٠٠٥.